مجلـة مداد المنارة
MEDAD ALMANARA JOURNAL

العدد الأول | ديسمبر 2023م | ص ص : 69 ـ 100

الرؤية البلاغية للجاحظ في ضوء أساليب القرآن وإعجازه

د. إبراهيم أحمد أبوغالية، أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية، كلية التربية مسلاتة، جامعة المرقب، ليبيا
Email: aaoboghalya@elmergib.edu.ly

المستخلص:

تناول البحث موضوع الرؤية البلاغية للجاحظ في ضوء أساليب القرآن وبيانه، حيث أشرت إلى أنماط التفسير في عصر الجاحظ، وإلى رأي الجاحظ في مفسري عصره، وتظهر رؤية الجاحظ في إعجاز القرآن، ومكانة الدرس البلاغي في مؤلفاته المختلفة والمتداولة، منها: نظم القرآن الذي يبحث في تفصيل أُسلوب القرآن وعجيب نظمه، ويقف عند آياته مفصلاً ومبيناً وجوه الإعجاز وأسرار الروعة في التعبير بالقياس إلى كلام العرب.

ويرى الجاحظ أنَّ الإعجاز متصل بالنظم وحده بصرف النظر عما يحويه القرآن من المعاني، والجاحظ هو من تتمحور عليه فكرة البحث، وعلى الدرس البلاغي عنده، هذا الدرس الذي ظل حلقة مفقودة، جعلت القرآن قِبلة لدراستها، وقد تبنّى الكثير من دارسي كتب الجاحظ وأدبه، إحياء الدرس البلاغي، والبحث عن نكت الإعجاز في القرآن الكريم، كطريقة سليمة ومنهاجٍ، والجاحظ علمٌ من أعلام البلاغة، وإمام من أئمة البيان، وفارس من فرسان التذوق للجمال، وباحثٌ قديرٌ في أسرار القرآن الكريم وإعجازه، درس اللغة والأدب والبلاغة على أئمة علمائها، وأخذ أصول الاعتزال عن رؤسائه، وأمتاز عنهم بذوقه الأدبي الرفيع، والجاحظ لا ينسى تحكيم الذوق الفني في أسلوب الآية إذا اشتجر فيها الخلاف، وهنا تبرز مقدرته الفنية، وتتجلى حاسته البلاغية في تذوق النصوص القرآنية، وتتضح معرفته بدقائق نظم الكلام، ويظهر اطّلاعه على ضروب القول عند العرب، ثم استيعابه الدقيق لبيان القرآن وأهداف تعبيره، وإدراكه أنه في الدرجة العالية من البلاغة التي لم يُعهد مثلها في تراكيبهم، وتتقاصر عنها درجات بلاغتهم.

الكلمات المفتاحية: البلاغة_ *الجاحظ_ أساليب القرآن_ الإعجاز.*

Abstract:

The research dealt with the subject of Al-Jahiz's rhetorical vision in the light of the methods and explanation of the Qur'an، where I referred to the patterns of interpretation in the era of Al-Jahiz and to Al-Jahiz's opinion of the interpreters of his time. Al-Jahiz's vision appears in the miracle of the Qur'an، and the place of the rhetorical lesson in his various and widely circulated works، including: Systems of the Qur'an، which examines in detail the style. The Qur'an is amazing in its organization، and it presents its verses in detail and shows the aspects of miracles and the secrets of magnificence in expression in comparison with the speech of the Arabs.

Al-Jahiz now sees the miracle as being connected to the system alone، regardless of the meanings contained in the Qur'an. Al-Jahiz is the one on whom the idea of research is centered، and on his rhetorical lesson. This lesson، which remained missing، enables the Qur'an to be studied، and many students of Al-Jahiz's books and literature have adopted the rhetorical lesson. It is clear about the miraculous jokes in the Holy Qur'an، as a sound method and method. Al-Jahiz is one of the figures of rhetoric، an imam of the imams of explanatory-statement، a knight of the taste for beauty، and a powerful scholar of the secrets of the Holy Qur'an and its miracles. He studied language، literature، and rhetoric under the imams of its scholars، the principles of seclusion from his superiors. They were distinguished by their fine literary taste، and Al-Jahiz did not forget to judge artistic taste In the style of the verse، if controversy arises in it، here his artistic ability is highlighted، and his rhetorical sense is evident in savoring the Qur'anic texts، and his knowledge of the subtleties of speech systems becomes clear، and his familiarity with the paths of speech among the Arabs is demonstrated، then his precise understanding of the Qur'an's clarification and the objectives of its expression، and his realization that it is in a high degree of eloquence. The likes of which are not known in their compositions، and the degrees of their eloquence fall short of them.

Keywords: *Rhetoric - Al-Jahiz - Methods of the Qur'an - Miracles.*

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفصح الناطقين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تمسك بهديه إلى يوم الدين، وبعد،،

فإنَّ علم البلاغة يحتل المكانة السامية، والمرتبة الرفيعة بين العلوم الدينية والعربية ما لا يستطيع أحدٌ أن ينكره، أو يشكك فيه، وموضوع علم البلاغة والإعجاز القرآني الذي أعجز الله به العرب أهل الفصاحة والبيان؛ ولذا كان النظر إلى الأدب – بصفة عامة – على أنه تعبير جميل عن فكرةٍ جميلة، وكانت علوم البلاغة هي الثمار التي أنتجتها تلك المحاولات؛ لإحصاء مظاهر الجمال والروعة في التعبير الأدبي، وما يكمن في هذا التعبير من دقائق وأسرار، فالبلاغة إذن لا يمكن فصلها عن موضوعها، وهو الأدب الذي كان القران الكريم أعلى مراتبه، وهؤلاء العلماء الأقدمون ممن ألّفوا في الفنون المختلفة كانوا يدركون هذه الحقيقة إدراكاً تاماً، ويعلمون تلك المنزلة لهذه الأصول وتلك الضوابط البلاغية[1]، والجاحظ من هؤلاء، وهو من تتمحور عليه فكرة البحث وعلى الدرس البلاغي عنده، هذا الدرس الذي ظل حلقة مفقودة جعلت القرآن قبلة لدراستها، وقد تبنى الكثير من دارسي كتب الجاحظ وأدبه إحياء الدرس البلاغي والبحث عن نكت الإعجاز في القرآن الكريم كطريقة سليمة، ومنهاجٍ علمي وهذا هو موضوع بحثي.

وسبب اختياري لهذا الموضوع هو أنَّ الجاحظ علمٌ من أعلام الأدب والبلاغة وإعجاز القرآن، جدير بالدراسة لإبراز معالم شخصيته الأدبية، وبيان منهجه في الدرس البلاغي كما أنّ كتب الجاحظ حافلةٌ بعلوم الأدب والبلاغة المبثوثة في أجزاء هذه الكتب المختلفة التي تحتاج إلى جمعها وإظهارها للدارسين، فهي تستحق الدراسة والتحليل والتقصي، فهذا البحث محاولة للإسهام في تزويد المكتبة العربية بأشياء جديدة في موضوع الدّرس البلاغي، وبيان العلاقة بين علم البلاغة والعلوم الأخرى، وتوضيح المنهج البلاغي الذي سار عليه الجاحظ في كتبه، لهذا كلِّه قسمت بحثي على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، بينت في المقدمة سبب اختياري لهذا الموضوع، والهدف من دراسته، ووضحت في المبحث الأول أنماط التفسير في عصر الجاحظ وموقفه من مفسري عصره، وفي المبحث الثاني بينت مكانة الدرس البلاغي في مؤلفات الجاحظ المختلفة، وعرضت في المبحث الثالث معالم الإعجاز البلاغي في دراسات الجاحظ. المفردة القرآنية، المجاز، والاستعارة، والتشبيه، والإيجاز، والكناية، والبديع، والنظم الموسيقي، والوزن، والسجع، والفاصلة في القرآن، وأخيراً الخاتمة استخلصتُ فيها النتائج. ورتبّتُ بحثي على النحو الآتي:

(1) المقاييس البلاغية عند الجاحظ، ص3.

المبحث الأول– الرؤية البلاغية للجاحظ على ضوء أساليب القرآن وإعجازه:

المطلب الأول– أنماط التفسير في عصر الجاحظ:

في العصر العباسي الأول، وشطرٍ من العصر العباسي الثاني، عاش الجاحظ حياته، وهذا هو عصر الإسلام الذهبي، حيث ثبتت قواعد الدولة العباسية، وأصبح لها شأن عظيم، وسلطان مهيب وسياسة واضحة، ونظام متدبر لكل الأمور، وقد أصبحت الدولة الإسلامية في هذا العصر تضم أجناساً كثيرة، إلى جانب الجنس العربي من الفرس، والترك، والهند، مزج الإسلام بين هذه العناصر، ولم يفرق بين عربي، وغير عربي، فالناس كلّهم سواء، ومن ثمَّ فقد قامت حضارة إسلامية ذات طابع خاص، هي مزيج بين حضارات هذه الأمم تحملها لغة القرآن، وقد دُونت الكتب والمصنفات بهذه اللغة، وفي ظِل هذه الثقافات المتعددة نشأ الجاحظ نشأته العلمية الخصبة، فقد عاش حياة طويلة، كانت حافلة بالنتاج الأدبي والعلمي والبلاغي، فالجاحظ علم من أعلام البلاغة وإمام من أئمة البيان، وفارس من فرسان التذوق للجمال، وباحثٌ قدير في أسرار القرآن الكريم وإعجازه، درس اللغة والأدب والبلاغة على أئمة علمائها، وأخذ أصول الاعتزال عن رؤسائه، وامتاز عنهم بذوقه الأدبي الرفيع، وطبيعته السهلة المبتكرة، وقد عاش الجاحظ في مرحلة شهدت تيارات متعددة من تفسير القرآن الكريم.[1]

وعند التدقيق في التيارات التي كانت تتعاطى التفسير في عصره نجدها متباينة متعددة، فهناك المفسرون، والقصاصون، وهناك الطاعنون، والعوام، والجهال، والمتكلمون. فضلاً عما انتهى إليه التفسير من تراث منقول، وما شاب بعضاً منه من وجوه لا يرتضيها التفسير السليم... وقد تصدَى الجاحظ لهؤلاء جميعاً، ونال كل منهم نصيباً من نقده، بعد أن درس مقولاتهم وآراءهم.. فكان بحق أول وأقدم ناقد تفسيري على أساس الدرس البلاغي ... وكان أول مفسر على هذا النمط البلاغي، تصل إلينا آراؤه شاملة واضحة ومكتوبة، وبذلك جلّى الجاحظ نفسه ناقداً تفسيرياً ممتازاً فوق كونه ناقداً، وأديباً بارعاً.

وليس ذلك بكثير على الجاحظ الذي غربل التراث الأدبي والديني في عصره. وانتهى إلى آراء، وأفكار كانت مثار الإعجاب في كل عصر. لما تمتاز به من الدقة والشمول، وسعة الأفق، وكثرة الاطلاع في اللغة والنحو والشعر، وأخبار العرب، والفلسفة، والأديان المختلفة، وثقافات العصر المتعددة، وإحاطته بالتوراة

(1) المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص13، 14.

والإنجيل، وكتب اليهود والنصارى، والفرس والهنود، وتتبعه لشوارد الأحاديث والنوادر، ومحاجته لأصحاب البدع والشعوبية، وإلى جانب ذلك رأيٌ حرٌ وبديهةٌ تكشف أمامه الحقائق، وتفتق أكمام المعاني.

المطلب الثاني- رأي الجاحظ في مفسري عصره:

أدرك الجاحظ أن المعنى يتحدد في النص القرآني، وإنْ كان اللفظ والتركيب، أو الآيةُ مُحتمِلة لعدة وجوه؛ إذ أنّ هذه الوجوه محدده بدلالات معينة، على وفق أسس وطرائق معيَنة، ولكنّ المبالغة في الأخذ بالرأي، أخضع القرآن لميول شخصية، ومذاهب عقدية وغير عقدية، ورأى الجاحظ أنّ المفسرين منهم من يخطئ، ومنهم من يصيب في فهم القرآن الكريم، ومعرفة المعاني وتبيانها، والبعض الآخر يتعسّف ويضل الطريق فيحمّلون النّص القرآني الكريم ما لا يتحمله، ومن ثمّ ينحرفون عن الجادة[1]، وهذا كلُّه فتح على المسلمين باب شرٍ خطير[2]، ومن صور النقد الذي وجهه الجاحظ لطوائف المفسرين:

1- أنّه تنبه إلى ظاهرة "الإغراب" في التفسير منذ أيامه الأولى التي كان يحصّل فيها العلم عن شيوخه، وما يصحبها من شغف العامة من الناس بها، لمكانة الغرابة فيها، فسمع ذلك منهم ووعاه، وتمثله بعد ذلك في نفسه وفكره، ومنهجه في التفسير.[3]

وكان أبو إسحاق النظام (ت231هـ) ممن تتلمذ عليهم الجاحظ وأخذ عنهم. وكان الجاحظ يروي عنه من جملة ما يرويه نقداً لعدد من المفسرين ممن لهم "إغراب" في التفسير في رأيه، فيقول: "كان أبو إسحاق يقول: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين، وإن نصّبوا أنفسهم للعامة، وكلما كان المفسر أغربَ عندهم كان أحبَّ إليهم، وليكن عندكم عكرمة، والكلبي، والسّدي، والضحاك، وأبو بكر الأصم في سبيل واحدة، فكيف أثق بتفسيرهم، وأسكن إلى صوابهم، وقد قالوا: في قوله تعالى: (**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**)[4]، إنه ليس يعني الجِمال والنوق، وإنما يعني السحاب"[5] والجاحظ إذ يروي هذا عن شيخه النظام؛ فإنما يبدو عليه أنه يرتضيه؛ بدليل سكوته عليه، وعدم تعرضه بالرد أو النقد، وانتقد الجاحظ رأي عكرمة والضحاك في تفسيرهما [ق] في سورة [ق] أنه اسم للجبل المحيط بالأرض، وأنه من زمرّدة خضراء لون

(1) ينظر: نظرية المعنى في النقد العربي، مصطفى ناصف، ص8.
(2) ينظر: الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم دوافعها ودفعها، محمد حسين الذهبي، ص7.
(3) مجلة المورد 3 البغدادية، مج(17، ع(4)، (د.ت). ص153.
(4) الغاشية، الآية [17].
(5) البيان والتبيين، ج1، ص194.

السماء منها[1]، وهذا لا شك مخالف للعقل والعلم... ممّا حمل ابن كثير على أن يعدّه "من خرافات بني اسرائيل التي أخذها عنهم بعضُ الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب"[2] ومن ذلك تفسيرهم "الإبل" في قوله تعالى: (إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) بأنها "السحاب". "وهذا يُعدُّ مجافياً لسياق النّص الذي وردت فيه اللفظة؛ إذ وردت في إطار تصويري منسجم مع السماء والأرض والجبال، التي هي أظهر ما يتراءى للبدوي في الصحراء".[3]

وتنبه الجاحظ إلى غريبة أخرى من غرائب التفسير تتعلق بدلالة لفظة "المحروم" في قوله تعالى (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۞ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)[4]؛ إذ ذهب أحد المفسرين إلى أن المحروم هو الكلب[5]، وواضح مدى الاعتساف، ومبلغ الانحراف في هذا التأويل، وبعده عن الوجه المقبول.

2- الجاحظ من أقدم من عني بتفسير القرآن بالقرآن؛ فالقرآن مرتبط بعضه ببعض بوشيجة معنوية وثيقة؛ إذ أنّ الآية توضحها آية أخرى في سياقها، أو في مواضع أخرى، فهو في بيانه "كالسورة الواحدة"[6] وقد أفاد الجاحظ من هذه الميزة الأسلوبية، فبنى نقده لأبي عبيدة معمر بن المثنى في بعض ما أورده في المجاز عليها قال: "وكان أبو عبيدة يتأول قوله تعالى: (وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى)[7].

"أنّ ذلك إنما على الأكثر، وعلى الجمهور الأكبر" أو بعبارة أخرى: إن أبا عبيدة كان يرى أن لثمود بقية باقية، وأن القرآن لم يرد بهذا التعبير، أن الله سبحانه أهلكهم جميعاً، بل يريد أنه أهلك الكثيرين منهم، فكان التعبير جارياً -كما يرى أبو عبيدة- على أسلوب التغليب" وهو الأسلوب المعروف في العربية، والذي له أمثلة في القرآن الكريم[8]، وقد رأى الجاحظ أن هذا التأويل بعيد عن الصواب وفيه شطط... واحتكم في رأيه هذا إلى القرآن نفسه؛ قال: وهذا التأويل أخرجه من أبي عبيدة سوء الرأي في القوم" ومعنى هذا أن الجاحظ يرى ثمود فنيت كلّها بالعقوبة، وأنها لم تبق منها أيةٌ باقية... وقد هداه لذلك صريح قوله تعالى في هذا الاستفهام الذي يُراد به النفي: (فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ)[9]، على حين ورد النص الأول: (وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى).

---

(1) الإتقان للسيوطي، ج2، ص143.
(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج8، ص37.
(3) الكشاف، ج3، ص333.
(4) المعارج، الآيتان [24، 25].
(5) الحيوان للجاحظ، ج1، ص193.
(6) معاني القرآن وإعرابه للزجاج، ج2، ص151.
(7) النجم، الآية [51].
(8) ينظر: البيان والتبيين، ج1، ص188.
(9) الحاقة، الآية [8].

ثم قال مستبعداً رأي أبي عبيدة، مستغرباً إياه: "فكيف يقول – سبحانه– ذلك إذا كنا نحن نرى منهم في كل حي باقياً: معاذ الله من ذلك، ثم عزز رده ما روي عن الحجاج بن يوسف الثقفي من أنه قال على المنبر يوماً:" تزعمون أنا من بقايا ثمود، وقد قال الله عز وجل: (وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى).[1]

3- يأخذ الجاحظ على روايات أهل التأويل تحميلهم النص القرآني أكثر مما يحتمله لفظه، وذهابهم إلى معانٍ لا يدل عليها منطوقه ولا مفهومه. فهو يرى أن يبني التفسير والتأويل على ما يدل عليه النص القرآني، وهو منهج أملاه عليه ما رآه من تبدد الآراء والأهواء، والاجتهادات التي لا سند لها من نص الكتاب المبين، وما يحتمله من معنى واقعاً أو روحاً، وتلك الأقوال التي ألوت بها عن جادة الصواب ملابسات الأحوال السياسية، والتناحر بين الفرق الإسلامية.[2]

4- يلاحظ الجاحظ أن أبا عبد الله محمد بن عمر الواقدي (ت207هـ) مع أنه عالم بالمغازي والسير والفتوح والأخبار، إلا أنه قد يورد ما لا دليل عليه من القرآن؛ وذلك أنه روى عن بعض شيوخه في قوله تعالى: (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي)[3]، "أن موسى –عليه السلام– كانت على لسانه شأمة فيها شعرات، أو بعبارة أخرى: أن سبب هذه اللثغة التي في لسان موسى عليه السلام، إنما كانت بسبب هذه الشامة ولا يرتضي الجاحظ –وهو المفسر القرآني– هذا القول، لأنه لا دليل عليه من النص الكريم: فيقول: " وليس يدل القرآن على شيء من هذا، لأنه ليس في قوله تعالى: (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي) ، دليل على شيء دون شيء"[4] وكأنه إلى جانب ذلك ينفي أن يكون ثَّم أثر يُعتدُّ به يدل عليه...

وانطلاقاً من هذا المنهج في التفسير لا يجيز الجاحظ تخصيص العام من دون مخصص، بل يرى ضرورة بقائه على عمومه، ما دام المخصص له معدوماً. ثم إنه لابد لهذا التخصيص من دليل وحجة من ذلك قول النبي –صلى الله عليه وسلم–، أو الوحي... فهو بذلك يضع قاعدة في أصول التفسير.[5]

5- وجد الجاحظ أن من المفسرين من يجهد في بيان اشتقاق طائفة من الأعلام القرآنية، وأن منهم من يتكلف ذلك فيذكر: أن بعض المفسرين يزعم أن نوحاً –النبي صلى الله عليه وسلم– "وإنّما سمي نوحاً، لأنه

(1) النجم، الآية [51].
(2) ينظر: الحيوان، ج1، ص208.
(3) طه، الآية [27].
(4) ينظر: البيان والتبيين، ج1، ص37.
(5) الحيوان للجاحظ، ج1، ص180.

كان ينوح على نفسه، وأن آدم سمي آدم؛ لأنه حذي من أديم الأرض... وقالوا كان لونه من أدمة لون الأرض، وأن المسيح سمي المسيح؛ لأنه مسح بدهن البركة أو لأنه كان لا يقيم في البلد الواحد، وكأنه كان ماسحاً يمسح الأرض.[1]

وقد أورد الجاحظ بعد ذلك تأويلات مرفوضة في اشتقاق أسماء من العربية تتسم على حد قوله بالغرابة والتكلف والتحذلق.[2]

6- عرض الجاحظ أيضاً لنقد القصاصين، وهم تلك الفئة التي تصدرت للوعظ والتذكير بما يصرف الناس عن الذنوب واقتراف الآثام، ويرغبهم في البر والتقوى، والذين كانت تزخر بهم البصرة في عصره، وقد كان الجاحظ يشهد مجالسهم مستمعاً وناقداً، متذكراً ومذكراً، وقد كان يشير مراراً في كتبه إليهم، ويذكر أسماء طائفة منهم، وبخاصة في كتابه البيان والتبيين.[3]

ويلتفت الجاحظ إلى تساهل هذه الفئة من الناس – مع حسن نيتهم – في إيراد الروايات والأخبار التي لا سند لها. ومن هذه القصص ما يصادم الدين والعقل، وقد سبر الجاحظ تلك القصص فاحصاً ومحللاً مبيناً ما فيها من الافتئات والبعد عن الدين والواقع.[4]

7- أما الطاعنون – وهم تلك الفئة التي ظهرت بعد حين من العهود الإسلامية الأولى، حيث أيدوا نزعات معادية للإسلام الحنيف، وعقيدته السمحة، وكان مدار هذه النزعات الطعن في القرآن الكريم: وقد تزعم ذلك زنادقة وشعوبيون وجهلة ومارقون. فتصدى الجاحظ للرد عليهم، وتفنيد مقولاتهم المسمومة.[5]

8- أما العوام والجهلة – الذين تصدوا للتفسير، ونصبوا أنفسهم للقول في كلام الله – وهم لا علم لهم به، فكم تبرّم بهم، وتألم من أقوالهم، وحزن لتأويلاتهم... فهو يذكر في رسالة إلى أبي الوليد بن أبي داوود أن ".. كثيراً ما يعتمد العامة، ودهماء أهل التشبيه... تحريف آي كثيرة إلى غير تأويلها، وروايات كثيرة إلى غير معانيها".[6]

---

(1) البخلاء للجاحظ، ص106 – 107.

(2) البيان والتبيين، ج1، ص24.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص215. وفيه إشارة إلى عدد من القصاص كأبي بكر الهذلي، ومطرف بن عبد الله وموسى الأسواري، وأبي علي الأسواري، وعمرو بن فايد، ومسلم بن جندب وغيرهم.

(4) كتاب البغال، ضمن رسائل الجاحظ، ج2، ص371.

(5) الحيوان للجاحظ، ج6، ص498.

(6) رسالة في التشبيه، ضمن رسائل الجاحظ، ج1، ص289.

المبحث الثاني- إعجاز القرآن والدرس البلاغي عند الجاحظ:

المطلب الأول- العوامل التي هيّأت له النبوغ:

1- موهبته الفطرية وذكاؤه الخارق، وسعة ثقافته وعمقها، وتعدد منابعها.

2- البيئة العلمية والأدبية التي نشأ في رحابها، فقد عاش في البصرة موطن العلم والأدب، فأخذ عن علمائها كل العلوم والفنون والآداب، التي نبغ فيها فأخذ اللغة والأدب عن الأصمعي، وأبي عبيدة، وأبي زيد الأنصاري، وأخذ النحو عن الأخفش، والحديث عن حجاج بن محمد والفقه عن أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة، ثم أخذ ثقافة المعتزلة على يد النَّظام، وهذه الثقافات المتنوعة تتطلّب علماً واسعاً بالديانات والفلسفات الأخرى.

3- اطّلاعه على كل مؤلفات عصره عربية، أو مترجمة عن اليونانية، والفارسية، والهندية، وبلغ من شغفه بالقراءة، أنّه كان يستأجر دكاكين الوراقين "المكتبات" ويبيت فيها للقراءة والدراسة والبحث.

4- حياته الطويلة التي أكسبته خبرةً وتجارب متعددة، والتي قاربت المائة سنة.

5- اندماجه في الحياة الواقعية: فاتخذ كل شيء يقع تحت حسّه موضوعاً للدراسة كالحيوان والنبات الصّناع، والفكاهة، والرحلات، والبخلاء، والأذكياء، والأغبياء ...الخ

6- تنقله في أوساط اجتماعية مختلفة مما أدّى إلى نمو معارفه، فقد خالط الباعة والمجانين وجالس الشعراء، والأدباء، ونادم الملوك والوزراء[1]

المطلب الثاني- مؤلفات الجاحظ ومكانة الدرس البلاغي فيها:

منح الله الجاحظ قدرة نادرة، وصبراً عجيباً على الإبداع، والابتكار، والتأليف في شتى العلوم التي عُرفت في عصره ، فخلّف ثروة ضخمة من الكتب والرسائل، ازدانت بها المكتبة العربية، وأصبحت غذاءً روّياً للعقل، والفكر، والوجدان، وبهذه القدرة النادرة، والصبر العجيب، والوعي الكامل لصناعة التأليف أخرج الجاحظ زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفاً في شتَى ألوان المعرفة، وهذا كمٌ هائل يشهد ببراعته وعبقريته، حتى قال عنه المسعودي: "لا يُعلم أحدٌ من الرواة وأهل العلم أكثر كُتباً منه"[2]، ورؤية الجاحظ تظهر في إعجاز القرآن ومكانة الدرس البلاغي في مؤلفاته المختلفة والمتداولة وإذا كان كتاب "نظم القرآن" الذي فقدناه، ولم يصل

(1) ينظر: أضواء اللغة العربية علي أحمد باكير، مكتبة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع بالفجالة، 1987، ص311.
(2) مروج الذهب للمسعودي، ج4، ص135.

إلينا علامة بارزة على طريق الإعجاز القرآني، فإن سائر كتبه وخاصة كتابه "حجج النبوة" يسعفنا مع غيره ومنها "الحيوان والبيان والتبيين".

والجاحظ في كتاب "نظم القرآن" الذي ألفه للفتح بن خاقان بالبصرة، حيث طلب منه أن يؤلف له كتاب "نظم القرآن" فلم يقع عند الفتح الموقع الذي أراد؛ لأن كتاب "نظم القرآن" يبحث في تفصيل أسلوب القرآن، وعجيب نظمه، ويقف عند آياته مفصلاً، ومبيناً وجوه الإعجاز، وأسرار الروعة في التعبير بالقياس إلى كلام العرب وكان الفتح يريد كتاباً في الاحتجاج لخلق القرآن بوجه عام، ولا يدخل في تفاصيل الأسلوب من الناحية البيانية والبلاغية، فرد عليه الجاحظ قائلاً: "فكتبت لك كتاباً أجهدت فيه نفسي، وبلغت فيه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن والرد على الطعان، فلم أدع مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام ممّن يزعم أن القرآن حق، وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة، فلما ظننتُ أنّي بلغت أقصى محبتك، وأتيت على معنى صفتك، أتاني كتابك يذكر أنك لم ترد الاحتجاج لنظم القرآن، وإنما أردت الاحتجاج لخلق القرآن".[1]

وفي كتابه الحيوان يقول الجاحظ: عن "نظم القرآن"[2] ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف فضل الإيجاز والحذف، وفرق ما بين الزوائد، والفضول، والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز، والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذي كتبته لك في باب الإيجاز وترك الفضول".[3]

ثم يذكر مثالاً لما جاء في الكتاب فيقول: "منها حين ذكر وصف خمر أهل الجنة: (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ)[4]، وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا، وقوله: -عز وجل- حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال: (لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ)[5] جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني، فإن أردته فهو مشهور".[6]

ويقول ابن الخياط عن "كتاب نظم القرآن". ومن قرأ كتاب عمر الجاحظ في الرد على المشبهة، وكتابه في الأخبار وإثبات النبوات، وكتابه في نظم القرآن، علم أن له في الإسلام غناء عظيماً لم يكن الله -عز وجل-

(1) الاحتجاج، من ضمن رسائل الجاحظ، ص148.
(2) الحيوان، ج3، ص76.
(3) يرى الأستاذ طه الحاجري أن الكتاب المقصود هنا هو كتاب (آي القرآن)، أثر القرآن في تطور النقد العربي لمحمد زغلول سلام، ج1، ص78.
(4) الواقعة، الآية [19].
(5) الواقعة، الآية [33].
(6) أثر القرآن في تطور النقد العربي لمحمد زغلول سلام، ج1، ص78.

ليضعه عليه، ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن، وعجيب تأليفه، وأنه حجة محمد – صلى الله عليه وسلم– وعلى نبوته غير كتاب الجاحظ".[1]

وأشار إليه الزمخشري في مقدمة تفسيره – الكشاف– ويبدو مما جاء في سياق كلامه أنه اطلع على الكتاب، وأفاد منه في دراسته لبلاغة القرآن وإعجازه البياني.

والجاحظ في كتابه "حجج النبوة" يسرد معجزات الأنبياء، ومن بينها معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى رأسها القرآن فيقول: ....إن الحجة لا تكون حتى تعجز الخلق، وتخرج من حد الطاقة كإحياء الموتى، والمشي على الماء، وكفلق البحر، وكإطعام الثمار في غير أوان الثمار، وكإنطاق السباع، وإشباع الكثير من القليل، وكل ما كان جسماً مخترعاً وحرماً مبتدعاً؛ وكالذي لا يجوز أن يتولاه، ولا يقدر عليه إلاّ الله –عز وجل– فأما الإخبار عن أفعال العباد، وهم تولوها وبهم كانت، وبقولهم حدثت، فلا يجوز أن تكون حجة، إذا كان لا حجة إلا ما لا تقدر عليه الخليقة، ولا يتوهم من جميع البرية. قلنا لم تزعم أن الأخبار حجة فيحتجوا علينا بها، وإنما زعمنا أن مجيئها حجة، والمجيء ليس هو أمر يتكلفه الناس، ويختارونه على غيره، ولو كان كذلك لكانوا منى أرادوه، وتهيئوا له، ولفعلوه من الباطل كما يجيء لهم في الحق".[2]

المطلب الثالث– الإخبار بالغيب وحجة النبي صلى الله عليه وسلم الكبرى في إعجاز القرآن بنظمه:

"أخبار الأمم في القرآن الكريم جاء بها النبي– صلى الله عليه وسلم – من عند الله وهو أُميّ باتفاق محبيه ومبغضيه، وأوليائه، وأعدائه، وأصحابه وخصومه، ولم يقرأ كتب الأولين، ولم يجلس لمعلم يقُصُّ عليه قصصهم"[3] قال تعالى: (**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ۞ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ**)[4]، ثم إنَ الأخبار التي جاء بها القرآن كان بعضها حديثاً عن أهل الكتاب، وبعضها عن غيرهم، والجاحظ لم يذكر الأخبار، وكيف تكون حُجّةً، ويقارن بين أخبار النبي، وأخبار الكاهن والمنجَم، وينتهي إلى أن إخبار النبي بالغيب حجةٌ، ثم يذكر حجة النبي الكبرى في إعجاز القرآن من ناحية نظمه. فيرى أنها فاقت حجج جميع الأنبياء؛ لتفوق العرب في الأفهام على غيرهم من الأمم كالقبط، وبني إسرائيل، ويعقد مقارنة بين حجة النبي للعرب، وحجة موسى لبني إسرائيل ويخرج من ذلك إلى الغاية التي هدف إليها، وهي رجحان أفهام العرب، وقريش على أفهام بني إسرائيل ثم يرى أن حجة النبي– صلى الله عليه وسلم– كانت عقلية، وأن ما جاء فيها من الوعيد كان وعيداً مؤجلاً. أما ما جاء بالنسبة لبني إسرائيل فكان وعيداً معجلاً.

---

(1) كتاب الانتصار، للخياط، ص439.

(2) حجج النبوة ضمن مجموع رسائل الجاحظ نشرها السندوبي، ص136.

(3) إعجاز القرآن الكريم، فضل حسن عباس، ص239.

(4) العنكبوت، الآيتان [48، 49].

ويستنتج من هذا أن العرب كانوا أصحاب عقول ينظرون إلى العواقب، ثم يرى أن معجزة النبي في القرآن كانت قاطعة، وكان موقعها في العقول، كموقع فلق البحر بالنسبة للعين".[1]

وينتهي من هذا الحجاج: إلى أنّ الإعجاز يتصل بالعرب من تلك الناحية، فيذكر أن القرآن إذ تحداهم دفعة بالحجة، ولم يقدروا على الإتيان بمثله عجزاً منهم، ووهناً لا تهاوناً، ولا تغافلاً؛ لأن الإتيان بمثل أصغر سورة منه كان كفيلاً بأن يكفيهم شر قتل الأنفس والأولاد، وأن التقريع بالعجز أشد على نفوس العرب والبدو خاصةً، لما فيهم من الأنفة والعزة، فكيف والقرآن يتحداهم في أخص خصائصهم وهو البيان، وهم قد عرفوا فيه بالبراعة والبلاغة.

ثم يرى الجاحظ أنّ "الإعجاز متصل بالنظم وحده بصرف النظر عما يحويه القرآن من المعاني، إذ طلب الله منهم أن يأتوا بعشر سور من مثله في النظم والروعة في التأليف، حتى ولو حوى التأليف الرائع كل باطل ومفترى لا معنى له، فما بال القرآن وقد جمع إلى النظم الرائع المعاني الفائقة" [2]، وقد وقع التحدي والعرب في أوج عظمتهم البيانية، فكانت المعجزة رائعة بالغة في النفوس.

يقول الجاحظ: "..وكذلك دهر محمد –صلى الله عليه وسلم– وكان أغلب الأمور عليهم وأحسنها عندهم، وأحبها في صدورهم حسن البيان، ونظم ضروب الكلام، مع علمهم له، وانفرادهم به. فحين استحكمت لغتهم، وشاعت البلاغة فيهم، وكثر شعراؤهم، وفاق الناس خطباؤهم، بعثه الله –عز وجل– فتحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه، فلم يزل يقرعهم بعجزهم، وينقصهم على نقصهم، حتى تبين لضعفائهم وعوامهم، كما تبين لأقويائهم وخواصهم، وكان ذلك من أعجب ما أتاه الله مع سائر ما جاء به من الآيات وضروب البرهانات.[3]

وهناك ظاهرة واضحة وهي أن الجاحظ يستخدم المنهج العقلي ليثبت الحجة أحياناً على من يتولى الرد عليهم، فتراه يتكلم في تفسير قوله تعالى: **(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**[4].

(1) حجج النبوة، ضمن مجموع رسائل الجاحظ، نشرها السندوبي، 136.
(2) حجج النبوة، ضمن مجموع رسائل الجاحظ، نشرها السندوبي، ص136.
(3) المصدر نفسه، ص143.
(4) النور، الآية [45].

ويجادلهم في المشي، ثم يعرض لقوله تعالى: (فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى)[1]، وقولهم إن ذلك خطأ فيقول: "وفي هذا الذي جهلتموه ضروب من الجواب، أما وجه منه فهو قول القائل ما هو إلاّ كأنه حية، وكأن مشيته مشية حية، ويصفون ذلك، ويذكرون عنده مشية الأيم، والحباب، وذكور الحيات، ومن جعل للحيات مشيا من الشعراء أكثر من أن نقف عليهم، ولو كانوا لا يسمون انسيابها وانسياحها مشياً وسعياً لكان ذلك مما يجوز على التشبيه والبدل، وإن قام الشيء مقام الشيء أو مقام صاحبه، فإن من عادة العرب أن تشبه به في حالات كثيرة.. وقال الله تعالى: (هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ)[2] والعذاب الأكبر لا يكون نزلاً، ولكنه أجراه مجرى كلامهم؛ كقول حاتم حين أمروه بفصد البعير، وطعنه في سنانه، وقال: هذا فصده".[3]

وهذا المثال يدل على سعة أفق الجاحظ، وشمول نظرته إلى الأسلوب. وهكذا يرى دائماً أن الألفاظ ليست دائماً على قياس المعاني، بل هناك أحياناً ضروب من التفنن في التعبير، والتجاوز عن الألفاظ، فقد تخرج عن مدلولاتها إلى مدلولات قريبة، ومن هنا جاءت ضروب المجاز.[4]

ومن طرائف التفاتات الجاحظ البلاغية في أسلوب القرآن ؛ قوله في كلمة شغل في قوله تعالى: (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ)[5]

فيتساءل على لسان بعض المتشككين بأي شغل يتشاغلون، أم لهم فراغ أبدا ؟، ويطيل الإجابة عن هذين السؤالين مستشهداً بآيات القرآن وكلام العرب. ولا ينسى بعد الحجاج الطويل والاستدلال على التشبيه في القرآن بما يجري على ألسنة العرب موضحاً الحجة الدينية فيقول: "والآي التي ذكرنا في صدق هذا الجواب كلها حجج على الخوارج في إنكارهم المنزلة بين المنزلتين".[6]

والجاحظ لا ينسى تحكيم الذوق الفني في أسلوب الآية، إذا اشتجر فيها الخلاف، وهنا تبرز مقدرته الفنية، وتتجلى حاسته البلاغية في تذوق النصوص القرآنية، وتتضح معرفته بدقائق نظم الكلام، ويظهر اطلاعه على ضروب القول عند العرب، ثم استيعابه الدقيق لبيان القرآن وأهداف تعبيره، وإدراكه أنه في الدرجة العالية من البلاغة التي لم يعهد مثلها في تراكيبهم، وتتقاصر عنها درجات بلاغتهم.[7]

---

(1) طه، الآية [20].

(2) الواقعة، الآية [55].

(3) الحيوان، ج4، ص273.

(4) ينظر: أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص81.

(5) يس، الآية [55].

(6) الحيوان، ج4، ص278.

(7) الحيوان للجاحظ، ج4، ص90.

المبحث الثالث– من معالم الإعجاز البلاغي في دراسات الجاحظ:

المطلب الأول– المفردة القرآنية:

"لا يكادُ يخلو كتاب من كتب الجاحظ على كثرتها من حديث عن القرآن الكريم، فتارة يحدثنا عن صحة أخباره، وتارة عن جودة سبكه وبديع نظمه، وثالثة عن قوة حُجته، وأخرى عن دحض الشبهات التي يوجهها الملاحدة والحاقدون، أمَّا عن بلاغة القرآن ونظمه، فنجد ذلك في كتبه البيان والتبيين وكتاب الحيوان، ويذكر أنَّه قد ألف كتاباً في نظم القرآن تحدث فيه عن مفردات القرآن"[1]، وقد لاحظ الجاحظ أنّ الله – تبارك وتعالى– إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة، والوحي، والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل، وحكى عنهم جعله مبسوطاً، وازداد في الكلام.[2]

ويرى أن القرآن الكريم قد أولى المفردة القرآنية عناية خاصة، فاختارها بدقة فائقة، ليدل على المعاني بلا اشتغال؛ وقد يشترك لفظان، أو مفردتان في المعنى، لكن أحدهما أدق من الآخر في الدلالة بروعته، أيضاً في الاختبار، ومراعاة الفروق بين الألفاظ، فلا يأتي بالألفاظ المترادفة دالاً على معنى واحد، إنما للدلالة على معانٍ مختلفة، وبقدر الدقة في إصابة المعنى يكون الفرق بين ألفاظ الناس في كلامهم وألفاظ القرآن.

يقول الجاحظ: "وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله – تبارك وتعالى – لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام من الأمة، وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع. وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأرضين، ألا ترى أنه لا تجمع الأرض على أرضين، ولا السمع أسماعاً. والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال، وقد زعم بعض القراء أنه لم يرد ذكر النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج".[3]

---

(1) كتاب إعجاز القرآن الكريم، فضل حسين عباس، ص39، 40.

(2) ينظر: البيان والتبيين، ج1، ص24، 25.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص20.

ويذكر الجاحظ ميزة إعجازية لألفاظ القرآن – من حيث النظم– ذلك أن بعض الألفاظ تأتي متصاحبة دائماً لا تكاد تفترق مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والانس.[1]

ومن لطائف ما ذكره الجاحظ من خصائص المفردة القرآنية: أن القرآن قد يستعمل لفظاً بعينه فيستغنى به من ألفاظ، ويدل على معان كثيرة أو أسماء مجتمعة، فتكون اللفظة، أو المفردة جامعة شاملة دالة على المعنى المراد أبلغ دلالة وأتمها.

ومن ذلك قول الله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ) فقال لنبيه: (قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ)[2]

فاشتق لكل صائد وجارح وكاسب وباز وصقر وعقاب وفهد وشاهين ورزق ويؤيؤ وباشق وعناق الأرض من اسم الكلب".[3]

المطلب الثاني– المجاز والاستعارة والتشبيه:

معروف أن المجاز اللغوي: هو "استعمال اللفظ في غير ما وضع له، لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، وأن هذه العلاقة إن كانت المشابهة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي الذي استعمل فيه فاستعارة، وإن كانت علاقة أخرى غير المشابهة فمجاز"[4]

وقد اقتصر الجاحظ في كتابه البيان والتبيين على بيان الاستعارة، وما يدور حولها في أحاديث منثورة في كتابه، ولم يجرِ ذكرٌ للمجاز المرسل فيما تعرض له في الكتاب، ولعل السبب في هذا هو ما للاستعارة من أهمية في صناعة الكلام، وما تقوم عليه من دقّة المسلك ولطف المأخذ لابتنائها على التشبيه، فالأمر فيها يحتاج إلى تأنٍ في الفهم، قد لا يحتاجه المجاز المرسل، ومن المعلوم أن الاستعارة في عرف البلاغيين هي: "استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين ما وضع له، وما استعمل فيه مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الأصلي"[5]، ومن هنا نستطيع أن نقول: " إن دراسات الجاحظ البلاغية في تفسير

(1) البيان والتبين، ج1، ص21.
(2) المائدة، الآية [4].
(3) الحيوان، ج4، ص188.
(4) علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان، بسيوني عبد الفتاح فيود، ص144.
(5) المقاييس البلاغية عند الجاحظ، فوزي السيد عبد ربه، ص232.

القرآن الكريم كانت صورة لدراسات المعتزلة في المجاز والتشبيه والاستعارة، وكانت تلك الدراسة نتيجة واسعة مقارنة في القرآن الكريم والبيان العربي، والكتب المقدسة، وبلاغة الأمم الأخرى" [1]

وكان مدار هذه البحوث مسألة التجسيم والتشبيه في القرآن، وما نشب من خلاف بين المعتزلة وبين أهل السنة، وأهل الحديث، والمشبهة.

وقد تعرض يحيي الدمشقي لمسألة التشبيه والتجسيم فقال: " إنه قد وردت في الكتاب المقدس كلمات كثيرة تحمل معنى التجسيم والتشبيه، وإن الناس في حديثهم عن الله تعالى يستعملون عبارات تؤدي إليهما، ذلك بأن الناس اعتادوا أن يستعملوا العبارات، المعروفة في كلامهم والصور المتشابهة المأخوذة من حياتهم، المألوفة لديهم، فحيثما وجدنا مثل هذه العبارات والصور التي تتضمن معنى التجسيم والتي تشبه الله بخلقه، يجب أن نعتبرها مجازاً أو رموزاً، وننظر إليها كأداة تعين الناس على معرفة الله تعالى وعلى هذا تناول الجاحظ كثيراً من الصور البيانية في القرآن".[2]

والمجاز عند الجاحظ يطلق على كل الصور البيانية، وهذا واضح عند تناوله لتفسير آيات كثيرة من القرآن الكريم، حيث لم يذكر الاستعارة أو التشبيه.. ويبدأ باباً في كتاب الحيوان بعنوان: "باب آخر في المجاز والتشبيه" وهو في قوله عز وجل: (يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا)[3] وقوله تعالى: (أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ)[4] وقد يقال لهم ذلك، وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة، ولبسوا الحلل وركبوا الدواب، ولم ينفقوا منها درهما واحداً في سبيل الأكل، وقد قال الله عز وجل: (إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا)[5]، وهذا مجاز آخر... وقد قال الله –عز وجل–: (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا)[6] فهذا كله مختلف، وهذا كله مجاز".

ثم يأتي بشواهد من الشعر على الاستعمال المجازي لكلمة أكل[7]، ولا يغفل المجاز من الناحية اللغوية المحدودة، ولكن الجاحظ في تعريفه للمجاز، وكلامه عنه، لا يفرق بين أنواعه المختلفة، فكله قد عدل به عن معناه الأصلي إلى معنى آخر فيه تحرير ومجاز، ومثال ذلك كلامه عن الخضرة في اللغة، واستعمال العرب للفظ السواد دالا عليها والعكس؛ ويعلل هذا الاستعمال بقرب أحد اللونين من الآخر، فيعدل العرب

(1) أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص83.
(2) ينظر: أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص81.
(3) النساء، من الآية [10].
(4) المائدة، من الآية [42].
(5) النساء، من الآية [10].
(6) الحجرات، الآية [12].
(7) ينظر: الحيوان للجاحظ، ج5، ص28–34.

عن الخضرة إلى السواد، وعن السواد إلى الخضرة. يقول: " أصل الخضرة هو لون الريحان والبقول، وجعلوا بعض الحديد أخضر والسماء خضراء حتي سموا بذلك الكحل والليل.

قال الشماخ بن ضرار:

وَرُحْنَا رَوَاحا مِنْ زرود فنازعت زباله جلبابا من الليل أخضرا

وقال الراجز:

حتى انتضاه الصبح من ليل خضر مثل انتضاه البطل السيف الذكر

نضو هوى بل على نضو سفر[1]

وقال الله عز وجل: (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۞ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ مُدْهَامَّتَانِ)[2]، قال: "خضراوان"، من الري سوداوان"[3]

واختلف الجاحظ مع أهل الظاهر – من اللغويين وأصحاب الحديث– في المجاز، وخاض معهم فيه على مذهب المعتزلة، ويفسره في القرآن برأيه، ويرد على المعترضين منهم متهما إياهم بنقص الإدراك، وقصر الفهم، وعدم الإلمام بدقائق الأسلوب القرآني، فضلاً عن أساليب العرب في الكلام، وتعرض أثناء تفسيره لآيات سورة النحل في قوله تعالى:(يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ)[4]، يقال: "فالعسل ليس شراباً، وإنما هو شيء يحول بالماء شراباً، أو بالماء نبيذاً، فسماه كما ترى شراباً؛ إذ كان يجيء منه الشراب.

وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا جاء السماء اليوم بأمر عظيم"[5] قال الشاعر:

إذا سقط السَّماءُ بأرض قومٍ رعيناه، وإن كانوا غضاباً[6]

فزعموا أنهم يرعون السماء، وأن السماء تسقط، ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها؛ فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها، ومن حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً، وهذا الباب مفخرة العرب في لغتهم، وبه وبأشباهه اتسعت، وقد خاطب بهذا أهل تهامة وهذيلاً، وضواحي كنانة، وهؤلاء أصحاب العسل، والأعراب أعرف بكل صمغة سائلة، وعسلة ساقطة، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب، أو طعن عليه من هذه الحجة..؟"[7].

---

(1) الحيوان للجاحظ، ج3، ص244.

2() الرحمن، الآيات [62-64].

(3) الحيوان للجاحظ ج3، ص244.

(4) النحل، من الآية [69].

(5) الحيوان للجاحظ، 246/5.

(6) البيت لمعاوية بن مالك في الإيضاح، للخطيب القزويني، ص251.

(7) الحيوان، ج5، ص 426.

والمجاز عند الجاحظ استعمال اللفظ في غير حقيقته توسعاً، من أهل اللغة، ويتكلم عن المجاز في قوله تعالى: (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ)[1].

ثم يقول: "قد علمنا أن الله عز وجل إنما كلمهم بلغتهم، أي أنه استعمل في القرآن اللغة التي كانت جارية على ألسنتهم بما فيها من فنون القول المختلفة"[2].

وقد يجمع الجاحظ بين التشبيه والاستعارة والبدل والمجاز في فن واحد من فنون القول في القرآن الكريم وقد يطلق اسم المجاز على الاستعارة والمثل، وهكذا نجد فنون الدرس البلاغي هنا غير متميزة، والذي سماه الجاحظ بدلاً إنما هو استعارة؛ وسبب التسمية في قوله تعالى: (حَيَّةٌ تَسْعَى)[3] مثلاً هو أنه أبدل السعي بالانسياب، والانسياح وهو مشي الحية المعروفة- كما أبدل النزل بالعذاب.

والبدل عند الجاحظ- أيضاً- يدل على التشبيه؛ لأنه لون منه كما كان الحال في الاستعارة، وفي باب التشبيه والبدل يتناول الجاحظ بعض أحوال اليوم الآخر وصوره، ومشاهد الجنة والنار والنعيم والعذاب، يورد قوله تعالى: (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ)[4]، وأصحاب الجنة لا يوصفون بشغل، إنما ذلك جواب لقول القائل: أخبرني عن أهل الجنة بأي شيء يتشاغلون؟ أم لهم فراغ أبداً؟ وهذا على مثال جواب عامر بن عبد قيس حين قيل له وقد أقبل من جهة الحلبة وهو بالشام- من سبق؟

قال عامر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قيل: فمن صلى؟ قال: أبو بكر، قال: إنما أسألك عن الخيل، قال: وأنا أجيبك عن الخير، وهو كقول أحد المفسرين، حين سئل عن قوله تعالى: (وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)، قال: ليس فيها بكرة وعشيا، وقد صدق القرآن وصدق المفسر، ولم يتناكرا، ولم يتنافيا؛ لأنَّ القرآن ذهب إلى المقادير، والمفسر إلى الموجود من دوران ذلك مع غروب الشمس وطلوعها.[5]

التشبيه:

"التشبيه عند البلاغيين هو: هو الدلالة على مشاركة أمرٍ لأمرٍ آخر في معنى بأداة تشبيه"[6]، وقد أكثر الجاحظ من حديثه عن التشبيه بمعناه الاصطلاحي نفسه، وأول ما أشار إليه هو المقصود الأهم من

(1) آل عمران، من الآية [183].
(2) ينظر: الحيوان، ج4، ص278.
(3) طه، من الآية [20].
(4) يس، الآية [55].
(5) ينظر: كتاب الحيوان، الجاحظ، ج4، ص279.
(6) الإيضاح، للخطيب القزويني، ص147.

التشبيه، فأهم مقاصد التشبيه هو الإيجاز في عرض المعاني؛ وذلك لأن قولك: محمد كالبحر جوداً، أوجز من أيّ عبارة تؤدّي هذا المعنى الذي تضمَنهُ التشبيه، أو وصف المشبه بالكثير من الصفات، فقد تحدث عن الإيجاز[1]، وبلوغ المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وألمح إلى أن التشبيه من أهم ما يؤدي إلى الإيجاز، وفي تفسيره لكثير من آيات القرآن كان الجاحظ يرى في التشبيه، وفي الاستعارة– كما مر آنفا– مجرد ذهنية للتعبير عن المعنى المراد، وتوضيحه في الأذهان، في قالب يمكن إدراكه بالحس، وذلك بتشكيله في صور المدركات الحسية، وهذا كله منطبق على صفات الله تعالى واليوم الآخر، ومشاهد القيامة والجنة والنار، وصفات العذاب والنعيم المختلفة، مثل قوله تعالى:(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ)[2]، وعرفنا كيف خرجها الفراء تخريجاً لغوياً، لم يوضح الصورة البلاغية، لكي لا يقع في محظور التشبيه...

وكان الجاحظ أميل إلى التجويد في أمثال هذه المواقف؛ فيبتعد بالصورة عن الشكل الظاهري، وما له من دلالات مادية إلى المعنى العام المقصود وراء الشكل، أو الصورة.

وينطوي تحت هذا– عنده– ما جاء من القرآن الكريم من أعداد. فالعدد عنده في القرآن لا يحمل معنى التحديد " الكمي" بالسبع، أو العشر، أو التسعة عشر. وإنما المقصود التعدد والكثرة.

ومن أمثلة التشبيه ما قاله: وقد اعترض معترضون على قوله عز وجل:(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۞ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ)[3].

فزعموا أنّ هذا المثال لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام؛ لأنه قال: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا) فما يشبه حال من أُعطي شيئاً فلم يقبله، – ولم يذكر غير ذلك– بالكلب الذي إن حملت عليه نبح، وولى ذاهباً، وإن تركته شدّ عليك ونبح، مع أن قوله: يلهث لم يقع في موضعه، وإنما يلهث الكلب من عطش شديد، وحر شديد ومن تعب– وأمّا النباح والصياح فمن شيء آخر. قلنا له: إن قال: (ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) فقد يستقيم أن يكون الراد لا يسمّى مكذباً، ولا يقال لهم كذبوا إلاّ وقد كان ذلك منهم مراراً. فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبه الذي أوتي الآيات، والأعاجيب، والبرهانات، والكرامات في بدء حرصه عليه، وطلبه لها بالكذب في حرصه وطلبه، فإن الكلب يعطي الجد، والجهد من

(1) المقاييس البلاغية عند الجاحظ، فوزي السيد عبد ربه، ص226.

(2) القلم، من الآية [42].

(3) الأعراف، الآيات [175–177].

نفسه في كل حالة من الحالات، وشبه رفضه وقذفه لها من يديه ورده لها بعد الحرص عليه، وفرط الرغبة فيها بالكلب إذا رجع ينبح بعد اطرادك له، وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبها والحرص عليها، والكلب إذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلاً عليك، ومدبراً عنك لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش.[1]

وقد بذل الجاحظ جهداً في استخراج وجه الشبه في التشبيه السابق، وبين الغرض منه ليجعله سهلاً في متناول العقول، فلا تكون لهم حجة على بلاغة القرآن، وما ادعي عليه من اضطراب في الصورة البيانية– كما ادعى من تولّى الجاحظ الرد عليه.

وقد تنبه الجاحظ إلى دقة القرآن في التشبيه بالخصائص المشهورة للمشبه به، وحاول – موفقاً– أن يكشف عن بعض ما وقع فيه الناس من غموض دعا إلى التساؤل عن وجه الشبه.

وهذا المثال من الشواهد الكثيرة على ما كان للقرآن من أثر في التنبيه على فنون القول في القرآن وروعة البيان بوجه عام...

وقد لاحظ بعض الباحثين في هذا المثال دلالة على معرفة العلماء في عصر الجاحظ للتشبيه ووجوهه، ووجه الشبه، وصورة تحققه في الشبه.[2]

وتعرض الجاحظ للتشبيه في قوله تعالى: (**شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۞ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**)[3]، وهذا المثال الذي كثر الكلام حوله وفيه، وكان أحد الأسباب الأساسية في تأليف كتاب "مجاز القرآن لأبي عبيدة" وأطال الجاحظ الوقوف أمام هذا المثال، وتعرض له أكثر من مرة: يقول في ذلك: " وليس أن الناس رأوا شيطاناً قط على صورة، ولكن لما كان الله تعالى، قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين، واستسماجه وكراهيته، وقد أجرى على ألسنتهم جميعاً ضرب المثل في ذلك، رجع بالإيحاش والتنفير، وبالإخافة، والتقريع إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين والآخرين، وعند جميع الأمم على طبائعهم، وهذا التأويل أشبه بقول من زعم من المفسرين أن رءوس الشياطين نبات ينبت باليمن".[4]

(1) ينظر: الحيوان، ج2، ص16–17

(2) البلاغة العربية في دور نشأتها وتطورها، سيد نوفل، ص138.

(3) الصفات، الآيتان [64، 65].

(4) الحيوان، ج4، ص39.

وتعرض الجاحظ لهذا المثال مرة أخرى فقال: "فزعم ناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير، وقالوا ما عنى إلا رؤوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم، فقال أهل الطعن، والخلاف لا يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه، ولا وصفت لنا صورته في كتابٍ ناطق أو خبرٍ صادق ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والترويع منها، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ من الزجر من ذلك لذكره، فكيف يكون الشأن كذلك، والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه، أو صوّرهُ لهم واصف صدوق اللسان بليغ في الوصف ونحن لم نعاينها، ولا صوّرها لنا صادق؛ على أن أكثر الناس من هذه الأمم التي لم تعاين أهل الكتابين وحملة القرآن من المسلمين، ولم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك ولا يقفون عليه ولا يفزعون منه، فكيف يكون ذلك وعيداً عاماً؟[1]

وهكذا كان لهذه الآية، ومثلها أثر في تنبيه الناس إلى التشبيه، فبحثه أبو عبيدة، وجدد الجاحظ البحث وتوسع فيه، وظلت الآية على رأس الشواهد في التشبيه المعنوي في كتب البلاغة...

وفيما يروي الجاحظ بيان لمدى إدراك الناس– في عهده– للتشبيه، وهو يلقي ضوء على مدى فهمهم لأمثال تلك الصور البيانية، وعلى أثر أسلوب القرآن في توجيه الأذهان إلى فنون القول وضروب الأساليب لبحثها ودراستها... ولم يكن الجاحظ في تفسيره للآية السابقة ظاهرياً، وإنما تمشّى مع فهم للدور الذي يقوم به التشبيه في الآية، وهو القصد إلى إثارة الوجدان عن طريق استدعاء الخيال لصورة قبيحة مفزعة، وما ينتهي إليه من إقرار الخوف، وبثه الفزع في قرارة النفس.[2]

يقول الأستاذ شفيق جبري: "والجاحظ مرة يحمل اللفظ على ظاهرِهِ؛ فالشيطان في اللغة معروف أمره، ولكن من المفسرين من فسر رؤوس الشياطين في الآية الوارد ذكرها تفسيراً عدّه الجاحظ غريباً"[3].

والجاحظ – الحر في تفسيره وبحثه– يرفض تفسير اللغويين– الحسي– وهو يتفق ووجهة نظر أهل الظاهر في التفسير، ويعارض وجهة نظر أهل النظر المتكلمين والمعتزلة؛ حيث فسر هؤلاء رؤوس الشياطين برؤوس نبات ينبت باليمن، أو شجر كريه المنظر، أو حيات قبيحة الشكل، وكلها مدلولات مادية لكلمة شيطان، قد يكون لها أصل من الواقع، وقد تكون من ابتكار هؤلاء، وهي على الحالين لا تبلغ في أثرها في النفس مبلغ

(1) المصدر نفسه، ج6، ص212.

(2) أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص91.

(3) الجاحظ معلم العقل، شفيق جبري، ص187.

صورة الشيطان، التي تثب إلى الخيال تجمع كل سمات الفزع والقبح، وإن تكن غير واضحة وضوح النبات، والشجر، والحيات، وهذا الغموض يضفي عليها مزيداً من التخويف.

وأرى في تفسير الجاحظ- هنا- أنه كان أكثر إدراكاً لمرمى التعبير القرآني في النفوس، وأثره في الوجدان وهو إدراك له قيمته من الوجهة البلاغية وتلك لفتات عابرة جاءت في دراسات الأقدمين، وأولاها النقد البلاغي الحديث كلَّ عناية...وفي تفسير الجاحظ نجد أن الصورة البلاغية تختلف أسماؤها.. فهي مرة باسم المثل كما سماها أبو عبيدة والفراء، وهو اسم مشتق من القرآن في مثل قوله تعالى:(**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**)[1]، أو قوله تعالى: (**ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ**)[2].

ويسميها أحياناً البدل، والاستعارة والمجاز، ويدرج هذه الأسماء مرة فيقول: "ويقولون أيضاً على المثل وعلى الاشتقاق وعلى التشبيه..."[3] ويذكر أمثلة من التشبيه بالحيوان في القرآن، وذلك لغلبة صفة ما في كل نوع منها أراد السياق إبرازها، فيضرب الله مثلاً بالعنكبوت في وهن البيت وضعفه وبالحمار في الجهلة والغفلة وفي قلة المعرفة وغلظ الطبيعة، والقرد في القبح والتشوية ونذالة النفس.[4]

وخلاصة القول في التشبيه في أسلوب القرآن في رؤية الجاحظ وتفسيره نستطيع أن نجمله في النقاط الآتية:

1- إن التشبيه في القرآن – فيما يتصل بالذات الإلهية وأحوال الملائكة، واليوم الآخر وما فيه من الجنة والنار ومشاهدهما- صور ذهنية في قوالب، وأشكال مادية محسوسة لإبراز المعنى وتثبيته في النفوس.

2- والتشبيه فيما عدا ذلك يجري حسبما يقتضيه التعبير الأدبي عند البلاغيين، والنقاد، وقد بدأ مدلوله هذا يتضح عند الجاحظ.

3- لم يكن لفظ التشبيه قد استقر بعد على الصورة التي عرفت بعد في البلاغة، بل تنازع مدلولها ثلاثة ألفاظ (البدل، والمثل، والتشبيه).

4- تعمق الجاحظ في بيان أوجه الشبه وتفصيل أجزائه مع شرح وافٍ في كثير من الأحيان ليوضح الغرض القرآني في التعبير.

5- كان الحِجاج الديني ومحاولة تسفيه أراء أصحاب الظاهر من المفسرين واللغويين من أهم الدواعي إلى التعمق في بحث التشبيه عند الجاحظ، ليفلت من القيود الحسية، ومن التجسيم.

---

(1) الكهف، من الآية [45].

(2) الفتح، من الآية [29].

(3) الحيوان، ج5، ص23.

(4) المصدر نفسه، ج5، ص23.

الاستعارة:

وهي وجه من وجوه الصورة البيانية– وهي عنده تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه[1] ويعرض لتفسير قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ)[2].

فيقول: "والخزنة الحفظة، وجهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ، ولا يختار دخولها فيمنع عنها، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به". وعلق على قول الشاعر:

طَفِقَتْ سَحَابةٌ بعدها تَغْشاهَا تَبْكي على عِراصِهاَ[3] عَيْنَاهَا[4]

بقوله: "وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه"[5]، والاستعارة بهذا التعريف قد تختلط عنده بالبدل والتشبيه البليغ الذي حذفت فيه الأداة وبألوان أخرى من فنون القول أوردها على أنها استعارة، كتأكيد الذم بما يشبه المدح، وتأكيد المدح بما يشبه الذم... وذكر في ذلك أمثلة من القرآن الكريم والشعر العربي... منها قول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم بهنَّ فلولٌ من قراع الكتائب[6]

ثم يأتي بأمثله من القرآن الكريم".[7]

ويتحدث الجاحظ في تفسيره لكثير من آيات القرآن عن القالب اللفظي في النظم القرآني، فيتكلم عن الإيجاز والحذف.

المطلب الثالث– الإيجاز:

أفاض الجاحظ في حديثه عن الإيجاز والإطناب، مما يقتضي التعرض لكل منهما بحديث مستقل فالإيجاز عند البلاغيين هو عرض المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة، مع الإبانة والإفصاح، ليسهل تعلُّقها في الذهن وتذكرها عند الحاجة، وحول هذا المعنى أدار الجاحظ حديثه على الإيجاز، فأحسنُ الكلام ما كان قليله

---

(1) ينظر: البيان والتبيين، ج1، ص116.

(2) غافر، من الآية [49].

(3) العراصي: جمع عرصة بسكون الراء، لسان العرب، ج7، ص52. وهي كما يقول الجاحظ: كل جوبة منفتقة ليس فيها بناء, والجوبة: فجوة ما بين البيوت، ينظر: لسان العرب، ج1، ص286.

(4) البيت في البيان والتبيين للجاحظ، ج1، ص116.

(5) البيان والتبيين، ج1، ص117.

(6) ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم: غرّيد الشيخ، ج1، ص17.

(7) ينظر: البيان والتبيين، ج4، ص272–278.

يغنيك عن كثيره[1]، ورب قليل يغني عن الكثير؛ بل رب كلمة تغني عن خطبة[2] ويعرفه بقوله: "ولو أن قائلاً قال لبعضنا: ما الإيجاز؟ لظننت أنه يقول الاختصار والإيجاز ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ"[3].

ورأي الجاحظ في الإيجاز جزءٌ من رأيه في البيان عامة، فالبيان التام عنده أن تكون الألفاظ والعبارات على قدر المعاني، وبناء عليه يمكن القول: " بأن العبارة الموجزة[4]، التي تعطي معان أكثر من ألفاظها بلاغة، وبقدر ما قل اللفظ وزاد المعني، بقدر ما ارتفعت نسبة القول في مراتب البلاغة حتى تصل إلى درجة الإعجاز ممثلة في عبارات القول الموجزة.

ويمكن القياس على ذلك في الإطناب، فهو زيادة في اللفظ لإيضاح المعنى وتوكيده في النفس، وبقدر ما تؤدي إليه الإطالة من الإيضاح والتوكيد ترتفع درجة البلاغة في العبارة حتي تصل إلى الإعجاز، وهو نهاية إفهام المعنى المراد بالألفاظ التي يمكن أن تأتي للدلالة عليه دون حشو أو خلل، وكثراً ما تناول الجاحظ الإيجاز في بيان القرآن الكريم على ضوء هذا الفهم.

فهو يقول: " إنه– أي القرآن– قد يدل بالكلمة الواحدة والكلمات المختصرة على معان متعددة يطول شرحها، وإذا أراد المتكلم العادي التعبير عن المعاني التي أرادها القرآن الكريم لم يصل إلى بغيته إلا بلفظ أطول وأقل دلالة، وهو يتعرض لبعض الآيات التي جاءت مثلاً للإيجاز المعجز، وقد لا ينص على ما فيها من إيجاز، ولكن شرحه لمعانيها، وبيانه لما تحتويه من معان، وتفصيله دال على اعتقاده في إيجازها المعجز[5]، ومثال ذلك قوله تعالى (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)[6].

قالت الحكماء: إنما تبنى المدائن على الماء والكلأ والمحتطبة، فجمع بقوله: (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)، النجم والشجر والملح واليقطين والبقل والعشب، فذكر ما يقوم على ساق، وما يتفنن وما يتسطح وكل ذلك مرعى، ثم قال على النسق: (مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)[7]، فجمع بين الشجر والماء والكلأ والماعون كله؛ لأن الملح لا

(1) المقاييس البلاغية عند الجاحظ، ص218.
(2) البيان والتبين للجاحظ، ج1، ص82.
(3) الحيوان للجاحظ، ج1، ص44.
(4) ينظر: المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبين، ص212، 218، 223.
(5) البيان والتبين ج2، ص1.
(6) النازعات، الآيتان [30، 31].
(7) النازعات، الآية [33].

يكون إلا بالماء، ولا تكون النار إلا من الشجر، وقال تبارك وتعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)[1].

وهكذا كانت دقة الجاحظ الذي تفتحت أمامه المعاني عند وقوفه على كلمتين من القرآن: (مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا). وأبو عبيدة والفراء وأمثالهما– لم يلتفتوا إلاّ إلى كلمة "بَعْدَ" في الآية ومجيئها مجازاً في معنى (مع).

ويظهر من ذلك مدى قبول ذوق الجاحظ وحسّه البلاغي لبيان القرآن، وتفتح أسلوبه أمامه، وخروجه من دراسته له بنكت وطرائف...، ومن ثم أمكنه أن يطلع على الناس برأي في بيان القرآن يتفق وطبيعته، وهو محاولة إبراز معالم الإعجاز والفهم البلاغي الأدبي الذي يستجيب فيه للنص، ولا يقصر بحوثه في الشكل اللغوي والغريب، كما فعل اللغويون، والفارق بين النظرتين واضح، وليس في انقلاب معنى "بعد" إلى معنى "مع" أو "مع" إلى "بعد" أثر كبير، فسواء خلق الله الأرض بعد السماء أو قبلها، فالقوة الإلهية وروعة الخلق لا تظهران إلا فيما رددته الآيات من الآيات، وما أبرزته من قصة الخليقة والنعم الكثيرة، وهي ما تولّى الجاحظ الكشف عنه.[2]

وبعد أن يذكر الجاحظ أمثلة الإيجاز في الشعر. ينتهي إلى إشارته السابقة في كتاب نظم القرآن– وهي قوله: "ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف بها فضل ما بين الإيجاز والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع بين المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، فمنها قوله تعالى حين وصف خمر أهل الجنة (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ) وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا، وقوله –عز وجل– حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال: (لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ) جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني، وهذا كثير قد دللتك عليه، فإن أردته فهو مشهور.[3]

المطلب الرابع– الكناية في القرآن ورؤية الجاحظ:

الكناية "هي لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، مع قرينة ليست مانعة من إرادة اللازم مع الملزوم وهي ثلاثة أقسام؛ لأن المطلوب بها إما صفةٌ، أو موصوف، أو نسبة صفة لموصوف، والمراد بالصفة: الصفة المعنوية، كالجود والكرم، والشجاعة وأمثالها لا النعت"[4] ومن المجمع عليه أنَ الكناية أبلغُ من الإفصاح، وقد تنبّه الجاحظ إلى هذه الحقيقة، ونبَّه إليها بقوله: " ومن البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع

(1) يس، الآية [80].

(2) الحيوان للجاحظ، ج3، ص96.

(3) الحيوان، ج3، ص87 وما بعدها، وجدير بالذكر محاولة الجاحظ الفصل بين نوعي الإيجاز بالقصر ويسميه الإيجاز– إطلاقاً– والحذف: وهو ما ظل بهذا الاسم عند علماء الإعجاز وعلماء البلاغة–..راجع أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص95.

(4) الإيضاح، للقزويني، تحقيق: غريد الشيخ محمد، ص225، 226.

الإفصاح بها إلى الكناية عنها"[1]، وجاءت الكناية عند الجاحظ بمفهومها العام، وهو ترك التصريح بالشيء والتعبير عنه تلميحاً وإشارة...يقول: " ربّ كناية تربي على إفصاح ولحظ يدل على ضمير".[2]

والكناية ككل لون من ألوان البيان مرتبطة بالحال، ومسترعاة عنها، وهي تحسن حين يراعى فيها المقام، يقول الجاحظ: " ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ...

فالإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية والاسترسال في موضع الاسترسال".[3]

وتحدث الجاحظ عن الكناية في ثنايا تفسيره لبعض ألفاظ القرآن الكريم وبعض الكلمات الإسلامية المحدثة التي أصبحت تستعمل كناية عن بعض المعاني، من ذلك مثلاً: "اسم المنافق لمن رآى بالإسلام واستتر بالكفر.. أخذ ذلك من الناقفقاء والقصعاء والدماء.. وكما سموا رجيع الإنسان الغائط، وإنما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاء حاجة للستر، ومنه العذرة، وإنَّما العذرة الفناء، والأفنية هي العذرات، ولكن لما طال إلقاؤهم النجو والزبل في أفنيتهم سميت تلك الأشياء التي رموا باسم المكان الذي رميت به، ثم يقول: "وكذلك كانت كنايتهم في انكشاف عورة الرجل، يقال: كشف علينا متاعه وعورته وشوراه، والشوار: المتاع، وكذلك الفرج، وإنما يعنون به الإير، والحر، والأست"[4].

المطلب الخامس– البديع أو النظم الموسيقي والوزن في القرآن "السجع والفاصلة":

لقد وضع الجاحظ بحقٍ بذوراً لنظرية الإعجاز التي تطورت فيما بعد، وإن كانت هذه البذور جاءت موزعة في مواضع من كتبه ومؤلفاته، وعن بلاغة القرآن ونظمه يذكر الجاحظ أنّه قد ألف كتاباً في نظم القرآن، تحدث فيه عن مفردات القرآن وبعض أساليب البيان التي اصطلح عليها فيما بعد بعلم البلاغة، وهذا الكتاب قد حُرمنا منه ولم تسعد المكتبة الإسلامية به، وكل ما وصل منه شذرات، وبعض عبارات ذكرها هو في كتبه المتفرقة[5]؛ ولعل الجاحظ أول من دوّن هذه الكلمة، وأرّخ لها مصطلحاً بلاغياً متداولاً، وقد ذكر ذلك ممثلاً له بأمثلة كثيرة وشواهد من الشعر والقرآن.[6]

وتعرض الجاحظ– كغيره من المفسرين منذ نزل القرآن– لما جرى عليه نظمه من نغم موسيقي ووزن خاص رتيب مكون من وحدات مترابطة منسجمة، فظنوه من وهمهم شعراً، ورأى آخرون التزامه الفاصلة على روي

(1) البيان والتبيين، ج1، ص88.
(2) المصدر نفسه، ج2، ص7.
(3) الحيوان، ج3، ص39.
(4) المصدر نفسه، ج1، ص334.
(5) إعجاز القرآن الكريم، فضل حسن عباس، ص40.
(6) البيان والتبين، ج4، ص55.

أحياناً، فظنها بعضهم على مثال القصيدة حين تلتزم قافية بعينها، وحاول آخرون من ناحية أخرى أن يوجدوا تشابها بين نظم القرآن، وما كان يجرى على ألسنة بعض كهان العرب من كلام مسجوع، فظنوه من ذلك الوادي سجعاً.

وجاء علماء القرآن، ودققوا النظر، وقارنوا بين وزن القرآن ووزن الشعر، بعد أنْ أمكن ضبطه بالعروض والقوافي والتفعيلات، ووزنوا عليه آيات القرآن، كما وزنوا أبيات الشعر، فلم يستقم لهم، وتأكدوا حينذاك من أنه ليس على وزن الشعر، وتبين لهم أيضاً أنه ليس من نوع السجع، ولا من وزنه، وأول من برزت عنده هذه الناحية من دراسات أسلوب القرآن الكريم هو الفرَّاء، وجاء الجاحظ فتصدى لوزن القرآن، وتكلم كثيراً فيه لينفي عنه وزن الشعر، يقول: "ويدخل على من طعن في قوله: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) وزعم أنه شعر؛ لأنه في تقديره "مستفعلن مفاعلن، فيقال له: أعلم أنّك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم، لوجدت فيها مثل مستفعلن مستفعلن كثيراً، ومستفعلن فاعل، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً، ولو أن رجلاً من الباعة صاح: من يشتري باذنجان، لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات، وكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشعر، ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام، وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعراً، وهذا قريب، والجواب فيه سهل والحمد لله..."[1].

وينتهي الجاحظ إلى حقيقة مؤكدة، حيث يرى أنه لا تكفي بضع أبيات تأتي عرضاً في وزن الشعر ليسمي هذا شعراً، ومنه لا يصح تسمية ما جاء من هذا القبيل من آيات القرآن، فتحكم بأن في القرآن شعراً، أو هو من قبيل الشعر؛ لأن هذا مثله كمثل الذي يجري عفواً على ألسنة الباعة والعامة، ولا يأتي الشعر بهذه السهولة دون أن يقصد إليه، فللشعر حدوده ومعاييره، كما أن لقائله شروطاً.

وبعد فهذا التوجيه إلى عرض نظرية الشعر على بساط البحث يرجع- في كثير أو قليل- إلى ما أُدُّعي على القرآن من وجود الشعرية، أو قربة منه، مما دفع كبار العقول من علماء الأدب والبيان والقرآن، كالفراء، والجاحظ، والباقلاني، وغيرهم إلى بحثها، مما كان له أثره البعيد في توجيه دراسات الشعر، التي تتعلق بتلك النواحي: الوزن، ووحدة القصيدة، والقافية، ثم عمود الشعر بوجه عام.

بقيت كلمة قصيرة تتعلق بمذهب الجاحظ العام في تفسير القرآن الكريم، ودراساته البلاغية، وجوانب الإعجاز فيه... وقد ذهب الأستاذ شفيق جبري إلى أن الجاحظ كان متناقضاً مختلفاً بين أهل الباطن وأهل الظاهر،

(1) البيان والتبيين، ج1، ص228-289.

فيرى أنه كان ظاهرياً في تفسير قوله تعالى: (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) وأثبت في موضع آخر أنه كان يقول بالمذهب الباطني في تفسيره.[1]

والأمر فيما يبدو ليس تناقضاً، فالمذهب الذي سار عليه الجاحظ في تفسيره لم يكن ظاهرياً، ولا كان باطنياً، إنما سار على هدى من ذوقه ومذهبه الأدبي– إذا صحت التسمية– وهو يقوم على دراسة الأسلوب بشيء من التفهم والاستجابة لتأثير النص، ثم محاولة معرفة جوانبه المختلفة عن طريق المقارنة، وتحكيم الذوق العربي ووزن التعبير بموازين توارثها الأدباء، وزادوها على الأيام كلّما اقتضت الضرورة.[2]

وقد آمن الجاحظ – على غير ما رأى النظام– بأن حجة القرآن في روعة نظمه، واعترف بأنه في الذروة العليا من البلاغة، ولهذا يصح أن يقاس على منهجه في البيان والأسلوب الأدبي العربي، وأن توازن فنونه في التعبير بفنونه، لذلك نراه يقدم الشاهد القرآني في صدر كلامه عن تلك الفنون، ثم يأتي بأمثلة من الشعر والنثر، ويضع هذا المنهج أمام الباحثين فيقول: "ومن خرج من أي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ويخرج من الخبر إلى الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكمة عقلية، ومقاييس سداد".[3]

فلا شك أن جهود الجاحظ في الإعجاز القرآني وتفسيره وإبراز جوانب الدرس البلاغي، قد أفادت كثيراً، وأضافت إلى الدراسات القرآنية كشوفاً جديدة في البيان والأسلوب، وقد اهتدى بها الأعلام بعد ذلك واستفادوا منها في الأزمنة التالية...

وإذا كان هناك من بعض المآخذ يحاول بها بعض الدارسين أن يقلل من تلك الجهود، وهي عدم التنسيق والتبويب في التأليف، وعدم الوضوح أحياناً ومجيء بعض الأحكام منثورة ضالة في ثنايا كتبه....

فإننا نقول إن عصر الجاحظ عموماً كان ينقصه ذلك، وكان يقتصر على التقعيد والتعريف والتناول المنظم، فلم يكن ذلك من عادة العصر بوجه عام، وجلّ هذه المآخذ يرجع إلى الشكل، لا إلى المضمون؛ لأن تلك الدراسات الأدبية والبلاغية التي تدور حول القرآن وأسلوبه كانت ناشئة، وكان كل عالم يجتهد، ويحاول أن يهتدي إلى فن يضع له الاسم الاصطلاحي الذي يروق له، وقد يهتدي بسابقيه، وكانت أن ظلت الاصطلاحات البيانية في عصر الجاحظ (القرن الثالث) والعصر الذي يليه (القرن الرابع) تتنازع الفنون القولية والأسلوبية، فيستقر بعضها، ويظل بعضها الآخر قلقاً إلى حين.

---

(1) ينظر: الجاحظ معلم العقل، لشفيق جبري، ص185–187.

(2) ينظر: أثر القرآن على النقد العربي، ص98.

(3) الحيوان، ج3، ص78.

فالجاحظ بدون منازع كان صاحب الباع الأكبر واليد الطولي على البيان العربي، وقد أثمرت جهوده في دراسة أسلوب القرآن ثمرات طيبة، وفتحت أبواب المعاني والمجاز وسائر أبواب البلاغة. بعد أن كانت الدراسات مقصورة على جوانب لغوية ودراسات حول ألفاظ الغريب.

وبالجاحظ بدأت مرحلة جديدة في الإعجاز القرآني وتفسيره...بدأت تلك المرحلة تشق طريقها في فهم النص القرآني، وإظهار سموه وجماله.

الخاتمة

1- عاش الجاحظ في عصر الدولة الإسلامية التي تضم أجناساً كثيرة إلى جانب الجنس العربي، وقد مزج الإسلام بين هذه العناصر، ولم يفرق بين عربي وغير عربي، فالناس كلهم سواء، ومن ثم فقد قامت حضارة إسلامية ذات طابع خاص.

2- التيارات التي كانت تتعاطى التفسير في عصر الجاحظ، متباينة ومتعددة، فهناك المفسرون، والقصاصون، وهناك الطاعنون، والعوام، والجهال، والمتكلمون.

3- كان الجاحظ أول وأقدم ناقد تفسيري على أساس الدرس البلاغي.

4- رأى الجاحظ أن المفسرين منهم من يخطئ، ومنهم من يصيب في فهم القرآن الكريم، ومعرفة المعاني وتباينها.

5- انتبه الجاحظ إلى ظاهرة الإغراب في التفسير، منذ أيامه الأولى التي كان يحصل فيها العلم عن شيوخه.

6- هناك عوامل هيأت لنبوغ الجاحظ منها موهبته الفطرية وذكاؤه الخارق وسعة ثقافته واطلاعه على كل مؤلفات عصره، والبيئة العلمية والأدبية التي نشأ فيها، وحياته الطويلة التي أكسبته خبرة وتجارب، مع اندماجه في الحياة الواقعية، وتنقله في أوساط اجتماعية مختلفة.

7- يرى الجاحظ أن الإعجاز متصل بالنظم وحده، بصرف النظر عن ما يحويه القرآن من المعاني.

8- الجاحظ من أقدم من عني بتفسير القرآن بالقرآن.

9- الجاحظ لا ينسى تحكيم الذوق الفني في أسلوب الآية إذا اشتجر فيها الخلاف.

10- يذكر الجاحظ ميزةً إعجازيةً لألفاظ القرآن – من حيث النظم – ذلك أن بعض الألفاظ تأتي متصاحبة دائماً، لا تكاد تفترق مثل: الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس،...الخ.

11- اختلف الجاحظ مع أهل الظاهر – من اللغويين وأصحاب الحديث – في المجاز، وخاض معهم فيه على مذهب المعتزلة يفسره في القرآن برأيه، ويرد على المعترضين منهم.

12- تعمق الجاحظ في بيان أوجه الشبه وتفصيل أجزائه مع شرح وافٍ في كثير من الأحيان؛ ليوضح الغرض القرآني في التعبير.

13- بالجاحظ بدأت مرحلة جديدة في الإعجاز القرآني وتفسيره، بدأت تلك المرحلة تشق طريقها في فهم النص القرآني، وإظهار سموه وجماله.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

1- أثر القرآن الكريم في تطور النقد العربي، محمد زغلول سلاّم. دار المعارف بمصر، (د.ت).

2- أضواء اللغة العربية، علي أحمد بكير. مكتبة الأنجلو للطباعة والنشر والتوزيع بالفجالة، 1987.

3- إعجاز القرآن الكريم، فضل حسن عباس. دار الفرقان للنشر والتوزيع عمان، ط2، 2001.

4- البخلاء للجاحظ، طبعة دار صادر بيروت، (د.ت).

5- البلاغة العربية في دور نشأتها وتطورها، سيد نوفل. دار النهضة المصرية، 1948.

6- البيان والتبيين للجاحظ، تح: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، 1975.

7- الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن ودوافعها ودفعها، محمد حسين الذهبي، (د.ت).

8- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير. المكتبة التجارية القاهرة، (د.ت) .

9- الاتقان، للسيوطي. المكتبة الثقافية بيروت، 1973.

10- الجاحظ معلم العقل، شفيق جبري. مطبعة الجامعة السورية، (د.ت).

11- حجج النبوة، من ضمن رسائل الجاحظ.

12- الحيوان للجاحظ، تح: محمد عبدالسلام هارون، دار الكتب المصرية، 1933.

13- ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم: غرّيد الشيخ. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت، 2000.

14- رسائل الجاحظ، تح: عبد السلام هارون. مؤسسة الخانجي القاهرة، 1975.

15- رسالة التشبيه، من ضمن رسائل الجاحظ.

16- علم البيان دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، بسيوني عبدالفتاح فيَود. مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة، ط2، 1998.

17- كتاب البغال، من ضمن رسائل الجاحظ.

18- كتاب الانتصار، أبو الحسن الخياط. دار الكتب المصرية، 1925.

19- الكشاف، جار الله الزمخشري دار المعرفة بيروت، (د.ت).

20- لسان العرب لابن منظور دار صادر بيروت لبنان، (د.ت).

21- مجلة المورد 3 البغدادية، مج(17)، ع(4)، (د.ت).

22- مروج الذهب، للمسعودي. المطبعة البهية، 1346هـ.

23- المفيد في علوم البلاغة، ج1، علم المعاني، عبدالحكيم الغرياني. الفسيفساء للطباعة والنشر والتوزيع طرابلس، ط2، 2016.

24- المقاييس البلاغية عند الجاحظ، فوزي سيد عبدربه، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة، 2005.

25- معاني القرآن وإعرابه، للزجاج. شرح وتحقيق: عبدالجليل عبدو شلبي، منشورات المكتبة العصرية بيروت صيدا، (د.ت).

26- المعتزلة، لـزهدي جار الله. الدار الأهلية للنشر والتوزيع بيروت، 1974.

27- نظرية المعنى في النقد العربي، مصطفى ناصف. دار القلم القاهرة، 1965.

28- الإيضاح، للخطيب القزويني. تح: غرّيد الشيخ، وإيمان الشيخ محمد، دار الكتاب العربي بيروت ط1، 2004.